المذاهب الأدبيّة (الاتّباعيّة)

المذهبُ الأدبيُّ جملةٌ من المبادئِ الجماليّة والأخلاقيّة والفلسفيّة المترابطة، وهوَ ليسَ إبداعاً فرديَّاً، وإنّما مشروعٌ جماعيٌّ يعبّرُ عن ضرورةٍ تاريخيّةٍ، وغالباً ما يرتبط ظهوره بصعود طبقةٍ اجتماعيّةٍ جديدة فيزدهرُ بازدهارها ويأفلُ بأفولِها.

ولعلّ من أكثرِ المذاهبِ تأثيراً في الأدب العربيّ:

(الاتّباعيّة و الإبداعيّة والواقعيّة والرمزيّة)

الاتّباعيّة (الكلاسيكيّة):

لغةً: مشتقة من كلمةٍ لاتينيّةٍ /classis/ ومعناها وحدةٌ في الأسطول أو فصلٌ دراسيٌّ أو طبقةٌ وتطلقُ على الطّبقةِ العُليا في المجتمع إذ كان المجتمع في أوربا ينقسم إلى طبقاتٍ أعلاها طبقة الكلاسيك.

واصطلاحاً: مذهبٌ أدبيٌّ ينزعُ إلى المحافظة على الأصول اللغويّةِ السّليمة في رتابةٍ وعنايةٍ وكذا التّقليدُ ومحاكاة الأدبِ القديمِ وخاصة الأدب اليونانيّ.

وعندما دخلتْ كلمةُ الكلاسيكيّة إلى الثقافة العربيّة عُرّبت بالاتّباعيّة.

نشأة المذهب الاتّباعي وأبرز أعلامه:

الاتّباعية أوّلُ مذهبٍ أدبيٍّ ظهرَ في أوربا بعدَ عصرِ النّهضةِ أو بعدَ حركةِ البعثِ العلميّ التي بدأت في القرن الخامسَ عشرَ.

وقد لقي المذهب الاتّباعيّ قبولاً في ذلك العصر لأنَّ روحَ المجتمع السائدة فيه هي روح المحافظة والتّقاليد والأرستقراطيّة التي توحي بها نُظُمُ الحُكم الملكي والإقطاعيّ.

ومن أشهر الكتاب الاتّباعيين في أوربا بيير كورني ومولبير الذي امتاز بأعماله الكوميدية، مثل: (المتحذلقات و النّساء العالمات ودون جون)

الاتّباعيّة العربيّة:

النّشأة:

وصلَ الشّعر العربيّ في أواخر حكم المماليك والاحتلال العثمانيّ إلى مرحلة تردّى فيها من حيث المبنى والمعنى (ولا يمكن الحكم على شعر هذا العصر بجملة بسيطة فهناك شعراء كبار وشعر رائع لكن الحديث هنا عن أسباب ظهور الاتّباعية العربيّة)

ومن أمثلة ذلك الشاعر أبو الحسين بن الجزّار الذي امتهن الجزارة (اللحام) فقال واصفاً ثيابه:

قفا نبكِ من ذكرى قميصٍ وسروالِ ودراعةٍ لي عفا رسمُها البالي

ويقولُ واصفًا دارَهُ:

ودارٍ خرابٍ بها نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السّابعة

وأخشى بها أن أقيم الصّلاة فتسجدُ حيطانُها الراكعة

إذا ما قرأتُ إذا زلزلتْ خشيتُ أن تقرأ الواقعة

ويقول راثياً حمارَه:

ما كلَّ حين تنجحُ الأسفارُ نفق الحمارُ وبارت الأشعارُ

خُرجي على كتفي وها أنا دائِرٌ بينَ البيوتِ كأنني عَطَّارُ

لم أدرِ عيباً فيه إلاَّ أنَّهُ مع ذا الذكاءِ يُقالُ عنهُ حمارُ

فظهرت **حركة الإحياء والتحديث** التي قاومت تدهور الأدب وانحطاطه في القرن الماضي فعملوا على نشر النماذج الأدبيّة القديمة، ثمّ قلدوها بإنشاء أدبٍ مشابهٍ ولكن بنظراتٍ حديثةٍ.

ومن أبرز أعلام الاتّباعيّة العربية:

محمود سامي البارودي الذي يُعدُّ رائدَها، فقد عمل على إعادة الحياة إلى الشّعر العربيّ بتقليد روائعِهِ ومحاكاتِهِ، كما عمل على معارضةِ روائع الشّعراء القُدامى، فانصرف إلى الشّعر القديم وعكف على دراستِهِ وخرجَ بأفضلِ نماذجه التي جمعها في كتابِهِ (مختارات البارودي) يحدوه حبٌّ عميقٌ لهذا الأدب، مؤمناً بأنّ الفنَّ تهذيبٌ وصقلٌ وجهدٌ.

فالشّعرُ في عصر البارودي كان مجرد قول معاد مُكرور، مثقل بالزخارف والصّنعة، أما البارودي فقد لفت الأنظار إليه لأنّه:

1- سما بشعره إلى مرتبةِ الشّعراء الفحول في العصور الماضيّة، ولا سيّما العباسيّ.
2- كان ينزعُ في شعرِهِ إلى تصوير الواقع دون الإغراب في الخيال، ودون الاعتماد على المحسنات البديعيّة، مع بساطة في التّعبير وسلاسة في الأداء، وقوة في السّبك.
3- شخصيته تبدو واضحة من خلال شعرِه، ولو حاكى القدماء وعارضهم، إذ كان شعره مرآة ص2افيّة تعكس ذاته ومشاعره.

وممّا قاله عن شعره:

تكلمتُ كالماضيينَ قبلي بما جرت به عادةُ الإنسانِ أن يتكلما

فلا يعتمدني بالإســـــــاءة غافلٌ فلابدّ لابن الأيكِ أن يتكلما

وقد اقتفى أثره عددٌ كبيرٌ من الشّعراء منهم: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعي وعلي الجارم، ومن شعراء الاتّباعيّة في سوريّة محمد البزم وخليل مردم وخير الدّين الزّركلي وبدوي الجبل، ومن العراق محمد مهدي الجواهري وغيرهم الكثير.

خصائص الاتّباعيّة العربيّة:

1- محاكاة القدماء:

لقد آثر أدباء الاتّباعيّة محاكاة شعر الفحول في عصري ما قبل الإسلام وصدره والعصرين الأمويّ والعباسيّ، وداروا في فلك أغراضِهِ فنظموا المديحَ والهجاءَ والرّثاءَ... كما قلدوهم في معانيهم وصورهم وألفاظهم وتراكيبهم ونسجهم، فاعتنوا بمطالع قصائدهم وصرعوا معظمها على عادة الشّعراء القُدماء، قال أحمد شوقي:

سلامٌ من صَبا بردى أرقُّ ودمعٌ لا يكفكفُ يا دمشقُ

وكثيراً ما تعدّدت موضوعات الشّاعر في القصيدة الواحدة، وقد تداولوا المفردات والتّراكيب المشهورة في الشّعر القديم من مثل: (وربّ، لَعَمري، ليت شعري...) كما نجد في قول محمد البزم:

ليتَ شعري كيفَ يُرجَى وصلُ مَن يخشى الظلال

2- معارضة قصائد القدماء:

اتّجه شعراءُ الاتّباعيّة إلى نماذجَ شامخةٍ في العصور الزاهية يحتذونها في الإطار الخارجيّ للقصيدة فحافظوا على البحر الواحد والقافية الواحدة، والتزموا وحدة البيت.

وقد عارض البارودي عنترة والنابغة والمتنبي وغيرهم، فقصيدة المتنبي التي قال فيها:

أودُّ من الأيام ما لا تودُّهُ وأشكو إليها بيننا وهْيَ جندُهُ

عارضها البارودي قائلاً:

رضيتُ من الدُّنيا بما لا أودُّهُ وأيُّ امرئٍ يقوى على الدّهرِ زندُهُ

أما البوصيري فقد قال:

أمِن تذُّكر جيرانٍ بذي سَلَمِ مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ

عارضه شوقي بقصيدةٍ مَطلعها:

ريمٌ على القاعِ بينَ البانِ والعلمِ أحلَّ سفْكَ دمي في الأشهُرِ الحُرُمِ

3- جزالة الألفاظ ورصانة الأسلوب:

حرص الشّعراء الاتّباعيون على جزالة الألفاظ واختيار أفخمها، وفرّقوا بين ألفاظ الواقعِ والألفاظِ الشّعريةِ واهتموا بحُسنِ صياغةِ العبارات والتّراكيب، كما نجد في قول محمد مهدي الجواهري:

لم يبق عنديَ ما يبتزه الألمُ حسبي من الموحشات الهمُ والهرمُ

لم يبقَ عندي كفاء الحادثات أسىً ولا كفاء جراحات تضج دمُ

وحين تطغى على الحرانِ جمرتهُ فالصمتُ أفضلُ ما يطوى عليه فم

ويمكن القول: لقد أفلح شعراءُ الاتّباعيّة في تصويرِ جوانب الواقع المحيط بهم، وكان لهم فضلٌ كبيرٌ وأثرٌ واضحٌ فقد أعادوا للعربيّةِ جمالها ورونقها وخلصوها من الشوائب التي علقت بها، والاتّباعيّة والمحافظة على عمود الشعر مازالت حتى يومنا هذا، غير أنّ الرغبة بالتجديد والتأثر بالآداب الغربيّة مهّد لظهور مدرسةٍ جديدة هي الإبداعيّة.